

الاستشراق الفرنسي والتاريخ المذهبي للغرب الإسلامي:

قراءة في كتاب ((الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي)) لألفرد بل (1873-1945م)

**French Orientalism and the Religious History of the Islamic West
A Reading of the Book "The Islamic Sects in North Africa" by Alfred
Bell (1873-1945)**عبد القادر سليمان¹

جامعة الجزائر2-أبو القاسم سعد الله-

Kader.zyad@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 26 / 03 / 2025 تاريخ القبول: 08 / 05 / 2025 تاريخ النشر: 03 / 06 / 2025

Abstract:

Alfred Bell is considered one of the most important French Orientalists who were interested in the religious and sectarian history of the countries of the Islamic West, especially in his book ((Islamic Sects in North Africa)), and the importance of the man's work lies in his attempt to chronicle the historical of Islam in North Africa over more than ten full centuries, and in his treatment of this history he uses multi-oriented approaches historically, socially and anthropologically. Despite the importance of this book and its spread among various scholars and interested parties, it contained many fallacies and risks that were not based on scientific or historical logic, in addition to the colonial background from which he launched many of his opinions. On this basis, our work in this article will be, through analyzing the content of the book and identifying these

fallacies and responding to them according to a scientific and historical method based on argument and evidence to reach a general view of European and French Orientalism, especially for the historical issues of the Islamic West.

Keywords: colonization; Orientalism; History; Islamic West; Sects;

المخلص:

يعتبر ألفرد بل أحد أهم المستشرقين الفرنسيين الذين اهتموا بالتاريخ الديني والمذهبي لبلاد الغرب الإسلامي، خصوصا في كتابه ((الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي))، وتكمن أهمية عمل الرجل في كونه حاول التأريخ للمسيرة التاريخية للإسلام في شمال افريقيا خلال أكثر من عشرة قرون كاملة، وهو في تناوله لهذا التاريخ يستعمل مقاربات متعددة التوجهات تاريخيا واجتماعيا وأنثروبولوجيا، ومع أهمية هذا الكتاب و انتشاره بين مختلف الدارسين والمهتمين ، الا أنّ قد انطوى على كثير من المغالطات و المجازفات التي لم يستند فيها لا على منطق علمي أو تاريخي ، فضلا عن الخلفية الاستعمارية التي كان ينطلق منها في الكثير من آراءه ، وعلى هذا الأساس سيكون عملنا في هذا المقال ، من خلال تحليل مضمون الكتاب و الوقوف على هذه المغالطات و الرد عليها وفق منهج علمي و تاريخ قائم على الحجة و البرهان للوصول الى نظرة عامة للاستشراق الأوروبي و الفرنسي خصوصا لقضايا الغرب الإسلامي التاريخية.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار؛ الاستشراق؛ التاريخ؛ الغرب الإسلامي؛ المذاهب.

1. مقدمة:

لطالما اهتمت المدارس الاستشراقية الغربية بتاريخ الإسلام والمسلمين لأسباب متعددة، منها ما هو مرتبط بالرغبة في التعرف على الخلفيات التاريخية لتاريخ الإسلام، بالدرس والتأليف وإخراج المخطوطات وتحقيقها، وأيضاً سعياً لخدمة الأهداف الاستعمارية للدول الأوروبية في اختراق المجتمعات الإسلامية، من خلال فهم آليات تفكيرها وطرق تفاعلها، وهو الأمر الذي لا يتأتى إلا بفهم التاريخ الحضاري لهذه المجتمعات بكل مفرداته السياسية والمذهبية والاقتصادية والاجتماعية.

وقد لعب الاستشراق الفرنسي دوراً مهماً في هذا النوع من الدراسات، مع تركيز اهتمامات المستشرقين الفرنسيين على منطقة بلاد المغرب العربي بأقطاره المختلفة التي وقع أغلبها تحت نير الاستعمار الفرنسي، فكان المستشرقون الفرنسيون في مقدمة الجيوش التي غزت هذه البلاد، سواء كمشاريكن في الحملات العسكرية مستشارين وإداريين، أو من خلال البعثات العلمية التي كانوا يرأسونها للبحث عن المخطوطات والكتب النادرة، إضافة إلى الرحلات الداخلية استكشافاً وتجسساً لفهم طبائع المجتمع المغربي وبمختلف صورها.

وقد برزت في هذا المجال أسماء عديدة من أمثال رينيه باسيه و إدموند دوتي ، و هنري لاووست و بروفنسال وغيرهم ممن كانت لهم اهتمامات كبيرة بجوانب عدة من التاريخ المغربي ، و الأنثروبولوجيا المغربية في مختلف مظاهرها الاجتماعية و الاثنية ، وقد خلف هؤلاء رصيذاً كبيراً من المخطوطات التي تم تحقيقها ومن الكتب التي تم تصنيفها عن مختلف جوانب البلاد المغربية.

ويبرز في الشق المتعلق بالتاريخ المذهبي للمغرب الإسلامي اسم المستشرق الفرنسي ألفرد أوكتاف بل، الذي يشكل حالة متميزة لرجل جمع بين الأدب والتاريخ

والأنثروبولوجيا، فضلا عن القرب من المجتمعين الجزائري والمغربي خصوصا، ومعرفته بالكثير من الخصائص المميزة لهما.

ورغم شهرة الرجل بسبب نشاطه المميز في الجزائر والمغرب، إلا أنّ دراسة آثاره وكتبه الخاصة بتاريخ المغرب العربي لم تنل حقا بمثل ما حصل مع غيره من المستشرقين، وهو الأمر الذي لا نجد له تبريرا مقنعا، حيث أنّ الدارس لآثار الرجل يدرك الخصوصية التي تميّزت بها كتبه في مقارنة التاريخ المحلي للجزائر والمغرب، وكذا التاريخ الإسلامي للمنطقة المغربية بشكل عام.

وفي هذا المقال سنحاول الاقتراب من منهجية الرجل في دراسة تاريخ الغرب الإسلامي من خلال واحد من أشهر كتبه وهو كتاب الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي، والذي يمثل النظرة الشمولية للرجل، التي توزعت في عدد من الدراسات والأبحاث التي سبقت هذا الكتاب، الذي جمع بين السرد التاريخي المنظم، والتحليل التاريخي والانثروبولوجي لأحداث التاريخ الإسلامي في بلاد الغرب الإسلامي.

وستقوم دراستنا للكتاب على تحليل النصوص الواردة فيه، ومحاولة استجلاء النظرة العامة التي انطلق منها الرجل والمعطيات التي اعتمد عليها، إضافة الى مجموعة النتائج التي كان يقررها في مختلف فصول الكتاب، مستصحين في ذلك المنهج النقدي والتحليلي من أجل فهم أفضل لمنهج الرجل وللمدرسة الاستشراقية الفرنسية بشكل عام.

2. التعريف بالاستشراق الفرنسي:

تختلف المصادر في تحديد البدايات الأولى للاهتمام الفرنسي بالحضارة الإسلامية، أو الشرق بمفهوم عام، فبعضها يرجع الأمر الى القرن الثامن للميلاد(8م)، وهو القرن

الذي شهد بداية التوغل الإسلامي في غرب أوروبا بداية من إسبانيا، وهنا بدأ الاحتكاك الفرنسي الإسلامي والتعرّف على الحضارة الإسلامية ومفرداتها¹. في حين يرى آخرون أن الحروب الصليبية –والتي لعبت فيها فرنسا دورا محوريا- كانت مجالا رحبا للتلاقي الحضاري بين الشرق والغرب، وكان للطّرف الفرنسي فيه نصيب كبير في التأثير والتأثر².

ولكن بعض الدراسات الأخرى تجعل بداية الاستشراق الفرنسي بحسب المفهوم الاصطلاحي للاستشراق، مرتبطة بالمجمع الكنسي بفيين في فرنسا في سنة 1311م والذي دعا اليه البابا كلمنت الخامس (1264-1314م)، وفي هذا الاجتماع صدر قرار مهم جدا يقضي بضرورة تدريس اللغات الشرقية من عربية وعبرية وكلدانية في الجامعات الأوروبية الكبرى وهي: باريس وأكسفورد وبولونيا وسلامنكا والجامعة المركزية للبابوية³، ومن هنا فُتح الباب على مصراعيه لدراسة تاريخ الشرق والتعرف على آدابه و فنونه ومختلف مفردات حضارته.

أما الاستشراق الفرنسي بأبعاده الاستعمارية و السياسية فيعود الى عهد الملك فرانسوا الأول (1494م-1547م) ، الذي شجّع تعليم اللغات الشرقية ومنها العربية ، وأسّس الثانوية الملكية college de de france في سنة 1530م ، و التي كان لها اهتمام بتدريس اللسان العربي⁴ ، وقد شغل غيوم بوستيل Guillaume postel

(1510م-1581م) فيها كرسي اللغة العربية ، وهو الرجل المهتم بحضارة الشرق و الذي استطاع الحصول على العديد من المخطوطات العربية⁵، ومن هنا بدأت الدراسات العربية و الإسلامية تأخذ حيزا أكبر ضمن الاهتمامات الأوروبية على مستوى الساسة و المفكرين على حد سواء.

وشهدت القرنان 16 و 17 م، نشاطا دؤوبا للمستشرقين الفرنسيين الأوائل من أمثال بارتلمي ديريلو Parthelmé d'herbelot (1625-1695م)، و أنطوان غلاند Antoine Galland (1646-1715م) ، نتج عنه ترجمة بعض المؤلفات مثل ألف ليلة و ليلة ، وإعداد الكثير من القواميس للغات الشرقية⁶. ثم جاءت الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798 م ، والتي يعتبرها الكثير من المؤرخين معلما بارزا في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب ، و منعرجا هاما في الدفع بالدراسات الاستشراقية الأوروبية قدما في طريق التعمق و التخصص في تاريخ الحضارة الإسلامية والشرق بشكل عام ، وفي مقدمة ذلك كان الاستشراق الفرنسي الذي أفاد منها أيما إفادة ، حيث رافق الحملة الفرنسية على مصر عدد كبير من المستشرقين المتخصصين في فروع شتى من العلم و المعرفة، والذين حصلوا على المئات من مصنفات المسلمين و مخطوطاتهم النفيسة⁷، و التي شكّلت فيما بعد المجال الخصب للدراسات الاستشراقية الفرنسية.

وبعدها مباشرة تم تأسيس مدرسة اللغات الشرقية في باريس، ضمن مبنى المكتبة الوطنية بباريس، والتي كانت منطلقا مهما للدراسات العربية لا في فرنسا فقط بل في

كل أوروبا⁸، وصارت باريس مقصدا لكل الراغبين في التعرف على حضارة الشرق ومخطوطاته، ومن الأسماء البارزة في هذه المرحلة التاريخية من الاستشراق الفرنسي نجد: سلفسترد دي ساسي (Silvestre de Sacy) (1758-1838م) الذي يعتبره الكثيرون الأب المؤسس للاستشراق الفرنسي⁹.

وقد تلا ذلك عقد المؤتمرات العالمية حول الاستشراق و موضوعاته و أساليبه ، كما تم توجيه الدراسات الاستشراقية في هذه الفترة لخدمة الاستعمار و التوجهات العدوانية الأوروبية تجاه العالم الإسلامي ، وكان أول مؤتمر في باريس سنة 1873م¹⁰، وبذلك صارت فرنسا عاصمة الاستشراق الأولى بما حوته من مؤسسات علمية و مكاتب ملأى بالمخطوطات الشرقية المختلفة، كما أعطت حركة الاستعمار الفرنسي لأفريقيا و أجزاء من آسيا في بداية القرن 19م زخما و دافعا كبير للدراسات الاستشراقية ، كان المحرك الأساسي فيها -زيادة على الفضول العلمي- فهم طبيعة المجتمعات الشرقية . والتعرف على أبعادها الانثروبولوجية و الدينية و الثقافية ، وهو الأمر الذي جعل كثيرا من المستشرقين الفرنسيين يتحولون الى أدوات استعمارية قذرة ، كان الهدف من تحريكها و دعمها هو خدمة الاستعمار الأوربي ، و العمل على استغلال التراث العربي و الإسلامي في توجهات عدائية سافرة¹¹.

وفي المجمل يمكننا أن نجمل مميزات المدرسة الاستشراقية الفرنسية فيما يلي:

1/إنشاء مجموعة كبيرة من المعاهد في البلاد العربية والإسلامية على وجه الخصوص، ومن الأمثلة على ذلك: المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة سنة 1880م، والمعهد الفرنسي في دمشق سنة 1930م، ومعهد الدراسات المغربية في الرباط سنة 1931م، ومعهد الدراسات العليا في تونس سنة 1945م، والمعهد الفرنسي الإيراني في طهران سنة 1948م¹².

2/الريادة على المستوى الأوروبي والعالمي، حيث أن الكثير من المدارس الاستشراقية الأخرى كانت متأثرة في جوهرها بالمدرسة الفرنسية ومن أمثلة ذلك مدرسة الاستشراق الروسي والسويدي، حيث يعود الفضل في نشأة الكثير منها الى المستشرق الفرنسي دي ساسي إبان إدارته لمدرسة اللغات الشرقية في باريس، والتي كانت مقصدا للكثير من الدارسين والمهتمين بالدراسات الشرقية عموما والعربية خصوصا¹³.

3/مناهضة الإسلام كركن أساسي ضمن التوجه الاستشراقي الفرنسي، والذي جعل المستشرقين الفرنسيين أكثر المستشرقين عداء للإسلام وقيمه، بل إن مركز الإسلاموفوبيا في العالم هو فرنسا كان ولا يزال.

4/ العمل وفق منظومة مرتبة لتوجيه الدارسين والباحثين الى الدراسات الإسلامية لأسباب علمية وأخرى عداوية بغرض التشويه والتزييف، وإنشاء مدارس للدراسات الاستشراقية جزئية في المستعمرات مثل الجزائر والمغرب وغيرها¹⁴.

2. المدرسة الاستشرافية الفرنسية في الجزائر:

تميزت المدرسة الاستشرافية الفرنسية في الجزائر بجملة من الخصائص الزائدة عما ذكرناه سابقا ، لأسباب عدة لعل من أهمها مكانة الجزائر في الفكر الاستعماري الفرنسي ، و الذي كانت لها خصوصية دونها عما سواها من المستعمرات الأخرى ، وهو ما جعل فكرة الاستشراق الفرنسي في الجزائر تكتسي أهمية بالغة أكدتها العديد من الإجراءات التي قامت بها السلطات الاستعمارية في هذا الخصوص، حيث أنّ أهداف الاستشراق الفرنسي في الجزائر قد تنوعت ما بين الديني الذي لعب فيه كثير من المستشرقين و مؤسساتهم دور مخابر التخطيط و التمهيد، للآلة العسكرية التي نفذت الكثير من تلك الخطط و المشاريع¹⁵ ، وما يثبت ذلك دون أدنى شك، الإجراءات التي استتبعحت احتلال الفرنسيين للجزائر و التي كان الهدف منها التضيق على منابع الدين الاسلامي و اللغة العربية في الجزائر وصولا الى إضعاف الوازع الديني في القلوب و العقول و هو ما سنعكس بالإيجاب على السياسة الاستعمارية في البلاد. كما كان الهدف الاستعماري مهما جدا في الاستشراق الفرنسي في الجزائر ، حيث أنه ليس من العسير إدراك أن الكثير من الدراسات الاستشرافية الفرنسية كانت في الحقيقة مصادر للمعلومات التاريخية و الجغرافية و الاجتماعية ، التي أنبت عليها الكثير من خطط الاحتلال الفرنسي في الجزائر، ويكفي هنا أن نشير الى أنّ البيان الذي وُزع على الجزائريين عشية الاحتلال ترجمه رأس هذه المدرسة المستشرق دي ساسي¹⁶ ، كما أنّه عمل على توجيه تلاميذه الى الاهتمام بالدراسات العربية في

الجزائر لنفس الغرض، ومنهم المستشرق لويس بيرنيه Louis Jacques Bresnier (1814-1869م)¹⁷.

وقد كان للهدف العلمي دوره الكبير أيضا، حيث وجد المستشرقون الفرنسيون في التنوع الجغرافي و الاجتماعي في الجزائر مجالا خصبا، سواء للبحوث العلمية أو الرحلات الاستكشافية، فكتبوا عن البيئات المحلية و اللهجات و التراث التقليدي المحلي ، فضلا عن وضع المناهج التربوية، وتحقيق المخطوطات العربية التي زخرت بها المؤسسات الدينية من مساجد و مدارس و زوايا¹⁸، وقد لخص المستشرق الفرنسي هنري ماسي Henri Massé (1866-1969م) مجالات اهتمامات المستشرقين الفرنسيين في الجزائر ...في المعاجم و القواميس و التاريخ و ترجمة النصوص الأدبية و التاريخية و الجغرافية و الدراسات الفقهية و الفولكلور و الدراسات الإثنية ، إضافة الى الكتب المدرسية¹⁹.

وقد مرّت جهود المدرسة الاستشراقية الفرنسية في الجزائر بمراحل مختلفة، كانت بدايتها في الفترة من 1830 الى 1879م ، وفيها تم التركيز على الترجمة التي أشرف عليها العسكريون ، من خلال كراسي تدريس اللغة العربية والجمعيات العلمية مثل الجمعية الآسيوية 1822م التي شارك في مجلتها العديد من المستشرقين المقيمين بالجزائر، و الجمعية الشرقية 1841م وقد اهتمت كثيرا بالجزائر ، و الجمعية الجغرافية ، و الجمعية التاريخية الجزائرية التي تأسست في الجزائر سنة 1856م

، وكانت تصدر المجلة الأفريقية التي اهتمت بالدراسات حول الجزائر بكل أنواعها و تخصصاتها²⁰.

وفي المرحلة الأخرى 1879 الى 1930م عمل الفرنسيون على إنشاء مدارس لتدريس اللغة العربية وعقد المؤتمرات المختلفة، ومن أشهر تلك المدارس نجد مدرسة الآداب التي تولى التدريس فيها المستشرق رينيه باسيه René Passet (1855-1924م)، كما كان له الفضل في ترؤس المؤتمر الرابع عشر للاستشراق سنة 1905 والذي شارك فيه أكثر من 500 شخص وتناول جوانب عدة من الدراسات الاستشراقية²¹، كما عملت فرنسا على محاولة ترقية اللهجات البربرية وإنشاء كراسي علمية لها لأغراض التفرقة واللعب على الأوتار العرقية في المجتمع الجزائري²².

وفي المرحلة التالية من 1930 الى 1962م تم توسيع النشاط الاستشراقي أفقيا من خلال العديد من الإجراءات مثل إنشاء المعاهد المتخصصة مثل المعهد المتخصص في الدراسات الصحراوية ومعهد الدراسات الشرقية، فضلا عن تحويل المدارس الشرعية الى ثانويات²³.

ومع كل ما سبق يجب الاعتراف بالكثير من الخدمات العلمية التي قدّمتها المدرسة الاستشراقية في الجزائر، في صورة الدراسات المختلفة، وتحقيق المخطوطات وترجمتها الى اللغات المختلفة.

3. التعريف بالمستشرق الفرنسي ألفرد بل Alfred Bel :

ينتمي ألفرد بل فكريا الى الخط الذي يجمعه مع غيره من المستشرقين من أمثال رينيه باسيه و إدموند دوتي (Edmond Doutté)(1867-1926م)، و إميل لاووست Emile Laoust (1876-1952م)، وقد عمل أفراد هذه المجموعة على محاولة دراسة المجتمع في بلاد المغرب العربي من خلال العديد من الجوانب سياسيا واقتصاديا و اجتماعيا و إثنيا و دينيا، لاستخدام العديد من الوسائل العلمية من قبيل الموسوعات و المتاحف و المؤتمرات والكتب و المجلات²⁴.

ولكنّ الدارس للحركة الاستشراقية الفرنسية في الجزائر يدرك بشكل واضح أنّ ألفرد بل قد تخصص بشكل مبكر في الدراسات الاجتماعية والدينية المذهبية لبلاد المغرب العربي، وهو ما أعطاه نوعا من الخصوصية والتميز في هذا النوع من الدراسات التي عالج من خلالها مواضيع الممارسات الدينية، والمؤسسات المختلفة من المساجد الى الزوايا والأضرحة وغيرها مما يدخل في نفس السياق²⁵.

ولد ألفرد ماري أوكتاف بل في سالان وهي قرية صغيرة في إقليم جورا (Jura) في 14 ماي 1873م ، حيث تلقى تعليمه المبكر ، ثم حصل على البكالوريا في بيزانسون Besancon وهو في السابعة عشر من عمره ، ولأنه كان من عائلة متوسطة الحال، فقد قرر عدم تحميل أسرته مصاريف إضافية للدراسة فقرر العمل معيدا في ثانوية أوكسير Auxerre الى غاية سنة 1891م ، وفي هذه الفترة بدأ التعليم في الجزائر يأخذ طريقه نحو التنظيم أكثر ، وفي نفس الوقت كانت المدرسة العليا للآداب في الجزائر

العاصمة تبحث عن طلبة فرنسيين لها ، فقد طلب بل أن يلتحق بالجزائر حيث كان شقيقه يعمل أستاذا بثانوية وهران ، حيث عمل معيدا بثانوية البليدة لمدة عام (1891-1892م) ثم معيدا بثانوية وهران لعامين (1892-1894م)، وقد حاول خلال هذه المدة أيضا تعلم اللغة العربية بسبب تعلقه بالحياة في الجزائر ، وفي الفترة من 1894 الى 1895م قام بأداء الخدمة العسكرية ، بعدها عاد الى عمله في ثانوية وهران ، وفي الفترة من 1895 الى 1897 عمل طيلة عامين بجد للحصول على شهادة بروفي (brevet) في اللغة العربية من المدرسة العليا للآداب بالجزائر العاصمة و التي كان رينيه باسي عميدا لها ، وقد لاحظ نبوغ الرجل و ذكائه فشجعه على مواصلة دراساته في اللغة العربية، ومن أجل أن يجعله قريبا منه ، فقد عينه معيدا بثانوية الجزائر في سنة 1897م²⁶.

وقد استغل الرجل وجوده بالجزائر فعمل على مواصلة دراسته العليا بمدرسة الآداب، مُرَكِّزًا على الأدب والتاريخ، وفي دروس اللغة العربية التي كان يقدمها رينيه باسي تزامن مع إدموند دوتي (Edmond dotté) وإدموند ديستان (Edmond destaing) (1872-1940م)²⁷.

حصل ألفرد على دبلوم اللغة العربية سنة 1899م، وبسبب مشاكل صحية كان يعاني منها منذ إصابته بالتيفويد في فترة خدمته العسكرية، فقد رأى باسيه أن يحوِّله الى مدينة تلمسان لعل مناخها يناسبه، وتم تعيينه أستاذا للأدب في مدرسة تلمسان في نفس السنة، وقد كان مديرا لمدرسة تلمسان في ذلك الوقت ويليام مارسيه ((William Marcais) (1872-1956م)، كما عمل ديستان أستاذ للعلوم في

نفس المدرسة، وقد كان لهؤلاء الثلاثة اهتمام مشترك بالعالم الإسلامي وبالجانب الروحي في الجزائر²⁸.

وبالموازاة مع عمله في المدرسة بتلمسان، وصل متابعة دروسه في المدرسة العليا للآداب بالجزائر عبر المراسلة الى أن حصل على دبلوم الدراسات العليا في التاريخ والجغرافيا في سنة 1901م²⁹.

ولم يمر وقت طويل ليثبت الرجل جدارته في دراسة الفولكلور والتاريخ والجغرافيا صدر له في سنتي 1902 و1903 ثلاثة دراسات باسمه الاولى بعنوان: ((الجازية أغنية عربية من خلال ملاحظات حول بعض الاساطير العربية وسيرة بني هلال)) وكانت في 184 صفحة وقد نشرت في المجلة الآسيوية، والدراسة الثانية فكانت بعنوان: ((البرك في الجزائر الشطوط والسبخات))، وهي مذكرة مقدمة الى الجمعية الفرنسية للجغرافيا في وهران من 39 صفحة، وكتاب ((بنو غانية وصراعهم ضد الإمبراطورية الموحدية)) من 251 صفحة³⁰.

وفي سنة 1904 غاد ويليام مارسي منصب إدارة مدرسة تلمسان، ولم يكن هناك شخص أجدر من ألفرد بل لتعويضه فعين في سنة 1905م، وخلال مدة إدارته للمدرسة في تلمسان والتي امتدت من 1905 الى 1935م، لم يغادر الرجل منصبه الا لمدة عامين من 1914 الى 1916م، استدعي خلالها من الحاكم الفرنسي في المغرب الذي طلب منه 'أداة تنظيم عملية تعليم الأهالي في فاس ومكناس'³¹.

حصل ألفرد بل على التقاعد في سنة 1936، وأسس جمعية أصدقاء تلمسان القديمة، واستقبل كرئيس للمؤتمر الثاني لفيدرالية الجمعيات العاملة لإفريقيا الشمالية. ودافع عن مشروع بحث واسع حول الصناعات التقليدية المحلية دون أن ينجح في ذلك.³²

استقر ألفرد بين 1942-1943 بمكناس عند ابنه لوسيان ليشتغل على الجزء الثاني من كتاب "الدين الإسلامي في بلاد البربر" - الذي صدر جزؤه الأول سنة 1938-وتوفي قبل إنجاز هذا العمل عن سن تناهز الثانية والسبعين في 18 فبراير سنة 1945.³³ وبخصوص مؤلفات المستشرق ألفرد بل، فقد أحصى جورج مارسيه Georges Marsais أعمال الرجل فبلغت مائة وواحد (101)، مقسمة كما يلي: 12 كتابا، و63 ما بين مقال وورقة علمية ومشاركة في مؤتمرات علمية، و25 تقريرا ببليوغرافيا، و21 دراسة في دائرة المعارف الإسلامية.³⁴ ومن أهم كتب الرجل:

-كتاب ((بنو غانية وصراعهم ضد الإمبراطورية الموحدية)).

-كتاب ((بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد)) لأبي زكريا يحيى بن خلدون(ت788ه/1379م) متناً وترجمة وتعليقاً في جزئين، وقد نسبته إلى ابن خلدون صاحب المقدمة، ثم صحح هذا الخطأ المستشرق دي سلان ورده إلى يحيى بن خلدون. - كتاب: ((زهرة الآس في بناء مدينة فاس)) لأبي الحسن على الجزنائي (ق9ه/15م) تحقيقاً وترجمة.

-الإسلام في بلاد البربر، وهو الكتاب الذي يتمحور حوله مقالنا هذا.

ومن الدراسات والمقالات نجد:

((قصة ولي مسلم يعيش في مكناس))، و((بنو سنوس وجوامعهم))، و((صناعة الخزف في فاس))، و((سيدي بومدين وأستاذه الدقاق))، و((وثائق حديثة عن تاريخ الموحدين))، و((صناعات العرب واليهود التقليدية في شمالي إفريقيا))، و((فهرس الكتب العربية في جامع القرويين بمدينة فاس وغيرها))³⁵.

4. خصائص مقارنة ألفرد بل لموضوع الحياة المذهبية في الغرب الاسلامي:

من خلال دراستنا لكتاب الدين الإسلامي في بلاد البربر، La Religion Musulmane en Berbérie، والذي ترجمه الفيلسوف والمفكر المصري عبد الرحمن بدوي (1917-2002م) تحت عنوان: ((الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي))، استطعنا الوصول الى جملة من المميزات العامة لمنهج الرجل في مقارنة الحياة المذهبية في بلاد المغرب منذ دخول الإسلام الى أواخر العصر الوسيط ومنها:

1/ انطلاق الرجل من جملة من الفرضيات الأساسية يشترك فيها مع كثير من المستشرقين قبله، وهي أن هناك فارقا بين العرب القادمين من المشرق وبين سكان البلاد من البربر في الأصول والحضارة، والتركيز على تلك الفروقات ومحاولة استخدامها منطلقات لتفسير الكثير من الأحداث.

2/ افتراضه أن القدرات الفطرية والمؤهلات العقلانية لأهل البلاد كانت هي الأساس في تفسير نشوء المذاهب وسقوطها، انطلاقا من النظرة الاستعمارية العنصرية.

ومن مميزات منهج ألفرد بل في عرض المذاهب الإسلامية عقديا وفقهيا الإيجاز والاختصار والقدرة على التلخيص المنهجي غير المخل بالمعنى، ولعل السبب في ذلك هو تشعب مواضيع كتابه وارتباطها بالكثير من التفاصيل التاريخية والشرعية، مما

جعله يلجأ إلى التلخيص، ولعل مرد اعجاب الكثيرين من الباحثين بالكتاب هو هذا الأسلوب السلس في العرض المختصر المفيد.

ومع ذلك فلا ينبغي أن نغفل أن هذا الأسلوب كان يوقعه أحيانا في كثير من الأخطاء في وصف المذاهب والأشخاص بقصد أو بغير قصد، من ذلك قوله أنّ الإمام مالك بن أنس (ت179هـ/795م) قد تأسف في آخر حياته على عدم اعتماده على الرأي كمصدر من مصادر مذهبه دون تقديم دليل على صحة ادعاءه³⁶، وكذلك في وصفه للإمام أحمد بن حنبل (ت241هـ/855م) أنه كان متكلماً لمجرد أنّه واجه المعتزلة وتصدى لمقولاتهم³⁷، وغير ذلك كثير.

ومن المسائل المهمة في منهج ألفرد بيل أنّه كثيرا ما يشكك في الروايات التي يروها المؤرخون المسلمون لمجرد أنّ العقل لا يقبلها، أو لأنّه يرى فيها نوعا من المبالغة في حين يأخذ عن زملائه المستشرقين دون أن يناقش رواياتهم ولا آرائهم ولا أفكارهم، وهذا من التحيز الذي لا يمكن أن يجعل منهجه موثوقا به، ومن أمثله ذلك تشكيكه في رواية مشاركة عبد الله بن الزبير في فتوح المغرب التي ينقلها عن البكري دون تقديم مبرر على ذلك³⁸.

والحقيقة أن ألفرد بل لا يعتمد على المصادر الإسلامية السنية إلا بالقدر الذي يتوافق مع أطروحته الفكرية القائمة على أن المذهب السني قد شكل عائقا في وجه استقلال البربر سياسيا ومذهبيا، ولهذا نجده يركز على أنّ المصادر السنية لم تكن موضوعية إزاء المذاهب الأخرى، ويفضل النقل عن المستشرقين من أمثاله والذين

كانوا في كثير من الأحيان يعبرون عن أطروحاتهم وأفكارهم لا عن الأحداث التاريخية الحقة.

من الملاحظات المهمة حول منهج ألفرد بل اعتماده بشكل كبير على مراجع ألفها مستشرقون، أو نصوصٍ ينقلونها من المصادر الإسلام ويفسّرونها بحسب قناعاتهم أو يوجهونها نحو خدمة أفكار ما، أو أنهم ينطلقون من فرضيات تتوافق مع أهدافهم ويحاولون لي أعناق النصوص لإثباتها، ومنهم: مارسيه وجولتسيهر وباسيه وغيرهم³⁹. كما ينبغي الإشارة الى مسألة مهمة وهي أنّ الفرد بل عند حديثه عن أهل النقل أو النقليين كما يسميهم وهم أهل الشريعة، يصفهم بعدم الدقة والتفسير السيئ للنصوص الشرعية والقصور في الفهم ويلصق بهم كل النقائص، في حين يصف العقليين ومنهم المعتزلة بالتفتح والعقلانية والمنهج النقدي⁴⁰، وهذا منهج يتشابه فيه كثير من المستشرقين.

ومن مميزات منهج ألفرد بل أيضا في كتابه المذكور، اعتماد المقاربة الأنثروبولوجية والاجتماعية في تفسير الكثير من القضايا، ومنها القول بأن المدن والحوضر كانت دائما مراكز للعلم والتعلم والتمذهب، فهو يرى أن عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرّيطين -وهو رجل تعلّم في المدن وانطبع بطابعها الحضري، لما حاول بدء دعوته في أوساط صنهاجة لاقى الكثير من التعنت والتمرد والاحتجاج من أفراد القبائل الصنهاجية البدوية الغارقة في الجهل والتخلف، وعدم الرغبة في التدين أو على الأقل في التزام بكل شعائر الدين⁴¹.

5. مميزات منهج ألفرد بل في كتاب ((الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي)):

استطعنا من خلال دراسة كتاب تاريخ الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي، وتحليل نصوصه ومحتوياته أن نصل الى جملة من الملاحظات، التي يمكن اعتبارها العناصر الأساسية التي تكوّن المقاربة الخاصة بالمستشرق ألفرد بل في تناوله لتاريخ الاسلام في بلاد المغرب، والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

أولا/ الانطلاق من المقولات الفكرية التي سادت عند أغلب منظري الحركة الاستعمارية الأوروبية الحديثة ، خصوصا من المؤرخين و الأنثروبولوجيين الغربيين ، والتي تُسمي الفتح الإسلامي لبلاد المغرب غزوا عربيا لشمال افريقيا، وتحاول أن تقدّم تفسيرات مادية واقتصادية بحتة لتلك الحركة، وهو ما اعتمده بل حيث ربط حركة الفتح بحاجه العرب الفاتحين القادمين من الجزيرة العربية الى ظروف حياته أفضل من شظف العيش الذي كانوا يعيشونه في بلادهم، ويستدل على ذلك بآيات من القرآن الكريم ، ولكّنه يخلط بين مفهوم العرب والأعراب-بقصد أو بدون قصد- معتبرا إياهما بنفس المعنى ، بل ويزيد في التدليل على فكرته بربطها بالغزوة الهلالية لبلاد المغرب في القرن 5هـ/11م ، دون مراعاة للسياق الزمني ولا الموضوعي المختلف⁴².

ولا يكتفي ألفرد بل بذلك بل يحاول أن يضرب الصورة الرمزية للفاتحين المسلمين الراغبين في نشر رسالة الإسلام ، بتكذيب دور الوازع الديني و التشكيك فيه ، مستشهدا بنصوص وآراء لبعض المستشرقين الآخرين ومهم ويليام مارسي في الحديث عن أنّ صوره الفاتحين المسلمين أصحاب الأهداف السامية لنشر الإسلام و تبليغه الى شعوب الأرض، لم تعد مقبولة ولا مسموح الترويج لها-بحسب زعمه- مقدّما

شهادة لضابط الجزائري في الحرب العالمية الاولى يصف فيها العرب في شبه الجزيرة العربية بأنهم كانوا مولعين بالقتل وسفك الدماء ، بعيدين عن روح الاستشهاد ، وهنا وجب طرح الاستشكال عن صحة القياس الذي اعتمده⁴³.

ومن الاستدلالات الساذجة لإثبات قلة الوازع الديني عند الفاتحين الأوائل ، أنه ينقل عن جولدسيهر أنّ بعض الصحابة كانوا رغم سابقتهم وقرّبه من النبي عليه الصلاة والسلام ، من أمثال الزبير بن العوام و طلحة بن عبيد الله ، قد جمعوا ثروات بالملايين وهو الأمر الذي يدل حسب رأيه عن طغيان النزعة المادية و الرغبة في الاستكثار من الأموال عبر غزو أراضي الآخرين ، ومع تحفظنا على صحة هذه المعلومات و التي ينقلها دون مصدر محدّد ، الا أنّ ما يضيفه ألفرد بل تأكيداً لكلام جولدسيهر (1850-1921م) هو الأكثر غرابة ، حيث يورد أبيات شعرية للشاعر الجاهلي الشنفرى يصف فيها حال الجوع و الضنك التي كان يعانيها هو وأغلب بدو الصحراء ، ليجعل منها مبرراً مقنعاً لتوجه العرب الى الغزو و الاستلاب ، وهو أمر غريب جداً من الرجل الذي يحاول أن يلبس لبوس المؤرخ الموضوعي ثم يقع في هذه التفسيرات السطحية الساذجة⁴⁴.

ثانياً/ اعتماد المقاربة الأنثروبولوجية في تفسير بعض المسائل الدينية والمذهبية ، ومن أمثلة ذلك تعليله لأسباب عدم انتشار الاعتزال في المغرب بالطبيعة الفطرية التي جُبّل عليها أهل المغرب من عدم العقلانية والميل الى السطحية ، والاستعداد الفطري للنزعة النقلية الاملائية⁴⁵.

-ومن أمثلة ذلك التفسيرات الخاصة بالرجل في مواطن انتشار المذاهب، حيث يرى أن مذهب أهل السنة نجح في المدن والحوضر أكثر من الأرياف، في حين كان للحركات الخارجية نجاح باهر في الأرياف بسبب الطبيعة البدوية القبلية، ولذلك ظلت هذه الأخيرة مركزا للمعارضة السياسية للسلطة السنية المركزية⁴⁶.

و في تفسيره لظاهرة استحداث أديان يسميها بالأديان البربرية من قبيل ديانة برغواطة التي ظهرت في القرن 2هـ/8م، يعتبرها بدايةً معتقدات مستمدة من الإسلام وفق الخصوصية البربرية، ثمّ يشرع في تفصيل شعائر تلك الديانة و تفاصيلها المختلفة، وفي تفسيره للأمر يرى أن رغبة البربر في ابتداع ديانة خاصة بهم، تنطلق من معتقداتهم الوثنية السابقة عن الإسلام، ومن طبيعة تكوينهم القبلي و الاجتماعي، هي التي جعلت خضوعهم لديانة برغواطة وانقيادهم لها يكون بمنتهى السهولة، وهو الأمر الذي يفسر استمرار ديانتهم و امتدادها الى أن قضى عليها المرابطون في القرن 5هـ/11م. ثم أجهز الموحدون بعد ذلك على البقية الباقية⁴⁷.

والحقيقة أنّ اعتماد المقاربة الأنثروبولوجية ملمح علمي هام في الدراسات الاستشراقية بشكل عام، ولا يمكن الاعتراض على كثير من مخرجاتها السياسية والاجتماعية، ولكنّها عند ألفرد بل تأخذ منحى مبالغاً فيه، من خلال جعلها الأساس الوحيد لتفسير الكثير من التفاعلات في بلاد المغرب سياسية ومذهبية، وفي تقديرنا أنّ الدافع الاستعماري الذي ميّز كثيراً من مدارس الاستشراق الأوروبية كان واضحاً في تفسيرات بل واستنتاجاته.

وفي نفس السياق يتحدث بل عن ديانة غمارة المبتدعة التي أنشأها رجل يسمى حاميم، وينقل كثيراً من قواعدها وأصولها، مع تشكيكه في المصادر التي تحدثت عنها والتي كانت في معظمها سنية ولذلك فهو يعتقد أنها غير موضوعية، مع ذلك فهو حريص على نقل شعائر تلك الديانة وأركانها وطرق تعبدها⁴⁸، بشكل يبعث الشك في الغرض من ذلك، ولا يخفي أبدا أثناء عرضه لتلك المعتقدات إعجابه بها واصفا إياها بالحركات الدينية البربرية ضمن الإسلام⁴⁹.

ثالثا/ التقاطع الواضح بين بعض أطروحاته والاستراتيجية الاستعمارية الهادفة لإحداث شرخ في علاقة البربر بالإسلام، من خلال السعي الحثيث لإثبات أي صلة أو ارتباط بين مظاهر الدين عند البربر المسلمين بالعقائد الوثنية القديمة ، سعيا لإثبات التأثير الكبير لتلك المعتقدات في العقلية البربرية من جهة ، و التقليل من أثر الإسلام في المجتمع البربري من جهة أخرى، وهذا الأمر لا ريب أنه جاء لخدمة الأهداف الاستعمارية لفرنسا في المغرب العربي، ومن أمثلة ذلك اعتماد على مقال للمستشرق لويكي (lewicki) يتحدث فيه عن عباده الكباش في تونس الإسلامية ويزعم أنّ الرمز الكباش الموجود في شعارات الدولة الأغلبية يعود الى معتقد وثني قديم⁵⁰، ومن الأمثلة أيض تفسيره مسألة البركة التي يؤمن بها البربر الى وقتنا الحالي ، الى اعتقاداتهم في تأثير القوى الطبيعية والبشرية والحيوانية التي يرون أنّ لها تأثيراً على حياتهم ، مجتهدا في صرفها عن الإسلام ونفي أي صلة لها به إما جهلا أو عمدا⁵¹،

ويختتم كل تلك الافتراضات بنتيجة مجتزأة دون أي دليل من واقع او تاريخ ، بأنّ الإسلام ورغم طول مدة وجوده في بلاد الشمال الافريقي لم يستطع التأثير في التصورات الدينية للبربر النابعة من الخلفيات الوثنية⁵² ، و الحقيقة أنّ هذا الزعم بعيد عن الواقع بل و تبدو عليه الخلفية الفكرية الكولونيالية.

رابعا/ التركيز على الحركات المذهبية المناهضة للاتجاه المجتمعي العام كالخوارج و الإباضية و الشيعة، و الرفع من شأنها ومحاولة إظهار تميزها العقلاني و الفكري عن الاتجاه السني ، والحقيقة أنّ هذا الأمر قد تميّزت به مختلف المدارس الاستشراقية الأوروبية ، ولكن أُلْفِرِد بل في كتابه يحاول إيجاد تفسيرات غير حقيقية لعلاقة البربر بهذه المذاهب، تصب كلها في خانة إيجاد قطيعة بين البربر و الاتجاه السني الذي يمثل المركزية الإسلامية، ومن الفرضيات التي طرحها الرجل في هذا السياق ، زعمه بوجود كراهية من قبل أهل السنة الأوائل الخُص -كما يسميهم- للبربر ، وهو الأمر الذي ألجأ بعض الشخصيات البربرية الى ادعاء النسب العربي تجنباً لتلك النظرة العنصرية، وبذلك الأمر يفسر سرعة انخراط البربر في دعم الحركات المذهبية المعادية للسنة من أمثال الخوارج و الشيعة ، بغية الانتقام وإيجاد أدوار في الساحة السياسية و العسكرية في بلاد المغرب⁵³ ، ولا شك أنّ هذا التفسير غريب جدا حيث أن استعمال مصطلح أهل السنة في القرن الثاني للهجرة يبدو غير واقعي تماما ، كما أنّ محاولة الاتكاء على مزاعم العنصرية العربية لتبرير ثورات البربر في افريقية أمر مبالغ فيه.

وفي نفس الفكرة السابقة يحاول بل تبرير اهتمام بعض الشخصيات البربرية بالعلوم الشرعية بالرغبة في استجلاب الاحترام والمكانة اللائقة في المجتمع، ولم يكن الأمر متعلقا بقناعة ما بل لم تكن تلك الرغبة سوى وسيلة لإثبات الذات، كما أنّ العرب الغزاة -كما يسمّهم- سَعَوْا الى استخدام العلوم الشرعية الإسلامية لتكريس السيطرة العربية على المجتمع، وهذا لعمرى من أغرب ما يمكن أن يصل المرء من استنطاق النصوص التاريخية بحسب المنهجية الاستشراقية.

وفي فكرة أخرى يقرّر دون دليل كعاداته أنّ المنطقتين الشرقية و الغربية من بلاد المغرب كانتا الى حدود القرن الثاني للهجرة ، الأكثر من حيث انتشار الجهل و عدم معرفة شرائع الإسلام بشكل صحيح ، وفي المقابل فقد استطاع الإباضيون في المغرب الأوسط تقديم الإسلام بشكل أفضل من أهل السنة و نشر العلوم الإسلامية ، بل و إقناع البربر بتنظيمهم السياسي و الديني⁵⁴ ، و الحقيقة كما سبق وقلنا أنّه لا يقدّم لنا أدلة تدعم رأيه من نصوص التاريخ أو الواقع ، بل ينتقل من انطباع شخصي له أو لمستشرق آخر الى انطباع آخر في سردية ذاتية غير مبررة.

وفي نفس الفكرة فإنّ انخراط البربر في الحركات الخارجة عن الحكم المركزي في المشرق، أو المشاركة في تأسيس دول في المغرب على غرار الدولة الرستمية والدولة الادريسية، -بحسب الرجل- لم يكن السبب فيه هو المساهمة في الحياة السياسية أو محاولة إيجاد دور ما في المجتمع الإسلامي، وإنما الرغبة في الانفصال عن العقائد الاسلامية برمتها، وكذا الحنين الى العقائد الوثنية⁵⁵.

والحقيقة أنّ آراء بل لا يمكن التأكد من صدقيتها بسهولة، حيث أنّ الرجل لا يقدم لنا مستندات ولا مصادر تاريخية تدعم أفكاره، بل يقدمها في قوالب جاهزة على أنّها حقائق مسلم بها مستطرّداً في التحليل القائم على الانطباعات الشخصية، وفي بعض الأحيان ينقل عن زملائه المستشرقين الذين يشتركون معه في هذه المنهجية الغربية. وبشكل عام فالفكرة الأساسية التي ينطلق منها ألفرد بل ويعود إليها أو يدور حولها هي مسألة الانتقال من قيمة منجزات الاسلام السني في الشمال الافريقي، وبالمقابل الرفع من شأن الحركات المذهبية الهامشية خارجيّة كانت أو شيعية، محاولا الإيحاء بأنّها كانت أكثر قبولا وإقناعا عند البربر من الاسلام السني⁵⁶.

خامسا/ عدم التمكن من فهم الفروق الدقيقة بين المذاهب العقدية الإسلامية يبدو سمة بارزة على ألفرد بل، حيث أنّه ومن خلال العديد من الأمثلة الواردة في كتابه نجده يقدم بعض الاستنتاجات والأحكام الغربية، والتي نرى أنّه وقع فيه لعدم فهمه لطبيعة الحركات المذهبية الإسلامية، ومن أمثلة ذلك:

- أنّه عند حديثه عن المذهب الأشعري يبدو غير قادر على استيعاب كثير من تفاصيل هذا المذهب، إذ أنّه يصف موقفه من الصفات ومن مسائل مثل الإرادة وخلق القرآن بأنّها مواقف غير واضحة وليست صريحة، أو أنّها كانت مسيرة للاتجاه السني العام، وأنّ الأشعري (ت324هـ/936م) رغم نشأته الاعتزالية اختار التوافق مع المزاج العام للمجتمع، ولم يكن مذهبه مبنيا على قناعات فكرية وعقدية، وهذا الأمر غير دقيق تماما، لأنّ العارفين بمذهب الاشعري يدركون أنّه وقف موقفا وسطا بين دعاة العقل و دعاة النقل، و اختار أقوالا و آراء مدعومة بنصوص الشرع و تفسيرات السلف، وهو في النهاية قد وقف في المنتصف تمام بين المجسّمة والمعطلة، وهذا الخلط لدة

ألفرد بل نرجّح أنّه إنما مرّده الى عدم تمكن الرجل من ناصية المذاهب العقدية الإسلامية⁵⁷.

-يتحدث في مواضع أخرى من الكتاب عن أنّ خوف الفقهاء التقليديين من النزعة العقلانية -عند المعتزلة طبعاً- في نقد الأصول التي يعتمدونها، هو الذي جعلهم يلجؤون الى فكرة غلق باب الاجتهاد، خوفاً من أن يؤثر العقلانيون على المصادر الأصلية للإسلام ، وفي نفس السياق يقدّم لنا شخص المهدي بن تومرت (ت524هـ/1130م) كحامل للواء التجديد العقلاني الداعي الى العودة الى علم الاصول أو ما يسميه بحيوية النزعة العقلانية في الاسلام، ولكنّه لم يقدّم لنا سبب النكوص عن هذه الفكرة وعودة سيادة مذهب الإمام مالك بعد أقل من قرن من هذه الحركة التومرتية ، مع اعترافه بالأمر⁵⁸، وهو الذي يجعلنا نوّكد مرة أخرى على المزاجية في التفسير و التعلييل دون الاستناد الى أدلة تاريخية أو علمية.

-ومن المقولات الأخرى للرجل في ذات الموضوع قوله أنّ دعاة الخوارج الذين يعتبرهم خير سفراء للإسلام بحسب رأيه، استطاعوا اقناع البربر بأرائهم، بسبب توافق مذهبهم الديمقراطي مع طبيعة البربر وتوقعهم الى التحرر من سلطة أهل السنة على حد قوله، وبذلك فقد كانوا في أتم الاستعداد للتضحية في سبيل معتقدتهم الجديد⁵⁹، وهنا ينبغي تسجيل ملاحظة مهمة وهي استعماله للفظ السني والسنة للتعبير عن الطبيعة المذهبية للسلطة الحاكمة خلال القرن الأول والثاني للهجرة وهو أمر غير دقيق ولا يعبر عن حقيقة الواقع والتاريخ.

وبالجملة فإنّ ألفرد بل يعتبر أن مذهب الخوارج قد شكّل طوق نجاة للبربر للانعتاق من سيطرة أهل السنة حسب رأيه ، وأنّ ثوراتهم المتعددة تحت لواء هذا المذهب ، كان الهدف الأساسي منها تحقيق الاستقلال، وهو في دفاعه عن هذا الرأي تجده معجبا بالأفكار الديمقراطية في هذا المذهب⁶⁰ على حد قوله ، غير مبالٍ بجانب التكفير و التعصب الذي عُرفت به هذه الطائفة ولا بالمآسي التي تسبّبوا فيها في المشرق و المغرب، ولا يخفى علينا أنّ هذا المنحى من الدراسة عند المستشرقين - أقصد الإشادة بالفرق الشاذة و المنحرفة فكريا في التاريخ الإسلامي- كان من ضمن وسائل الاستشراق للطعن في التاريخ الإسلامي ، فضلا عن أنه من وسائل الاستعمار الحديث لإثارة النعرات العرقية و المذهبية ضمن سياسة فرق تسد.

سادسا/ في هذا العنصر نخصّص الحديث للإيجابيات الكثيرة في كتاب الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي، ومنها:

-السهولة في عرض المواضيع والأحداث، والأسلوب المنظم في ترتيب الحقب التاريخية بصورة تجعله من أهم المراجع في تاريخ الغرب الإسلامي، مع ملاحظة أنّ هذه الأهمية تستلزم القراءة النقدية التحليلية للكتاب، وعدم الركون والتسليم بكل ما جاء فيه، وقد ذكرنا فيما سبق بعض مظاهر القصور في الكتاب.

-ومن إيجابيات الكتاب أيضا أن ألفرد بل كان موفقا في كثير من القراءات للأحداث السياسية والمذهبية في الغرب الإسلامي ومن أمثلة ذلك: حديثه عن أنّ التشيع لم يستقر في قلوب البربر الا ظاهريا أو بما يتوافق مع المصالح السياسية للقبائل

المتحالفة مع الفاطميين مثل كتامة ثم صنهاجة، وهذا بسبب رسوخ مذهب مالك في قلوب الناس⁶¹.

-وفي حديثه عن نجاح الفاطميين في بلاد المغرب يقول إن ذلك يعود الى أسباب سياسية واجتماعية، ومنها محاولات اللعب على فكرة المظالم وسوء أداء الحكام، إضافة الى براعة أبي عبد الله الشيعي (ت298هـ/911م) وقدرته على استغلال الفرص بشكل جيد⁶²، وفي المقابل لا يرى أي قناعة دينية أو مذهبية للبربر بمذهب الشيعة، والحقيقة أن هذه المسألة صحيحة الى حد كبير ولكنها لا تلقي اهتماما للدعم العاطفي من قبل المغاربة للمذهب الشيعي تأثرا بفكرة المظلومية من جهة، وتجسيذاً لمحبة أهل المغرب لأهل البيت وتعظيمهم لهم.

-وفي موضوع المرابطين يرى ألفرد بل أنّ القرن 5هـ/11م وه بداية نشوء وتوسع حركة المرابطين، تعني بداية الانتقال الحضاري من الشق الشرقي لبلاد المغرب والذي استمر لقرون، الى الشق الغربي الذي سيكون مسرح معظم الأحداث الى نهاية العصر الوسيط، خصوصاً في الشأن الديني والمذهبي اللذان سيصبحان على رأس المسائل المهمة، إذ أن حركتي المرابطين والموحدين كانتا بالأساس دعوتان دينيتان قبل أن تتحولا الى دولتين⁶³.

-ومن الآراء الجديرة بالاهتمام عند ألفرد بل و التي تخص الدعوة المرابطية أيضا ، أنها سرعان ما تحولت الى حركة عسكرية نتيجة اقتناع صاحبها بأنّ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بالقلب و اللسان في هذا المحيط البربري القبلي الذي يموج

بالاضطرابات و البدع الدينية و التفلّت الحاصل من شعائر الدين لن يكون له أي أثر، فتحول الى العمل العسكري الذي اضطر فيه الى إيجاد قيادة ثانية سياسية و عسكرية ترافقه في عمله الدعوي، فاختار رجالا منهم يحيى بن عمر اللمتوني (ت447هـ/1055م) ثم شقيقه أبو بكر بن عمر (ت480هـ/1087م) ثم يوسف بن تاشفين اللمتوني (ت500هـ/1106م)، للمهمة، ومع توسع قاعدة المرابطين وزيادة الأراضي الخاضعة لهم، وابتعادهم أكثر فأكثر عن مواطنهم الأصلية في الصحراء، وانفتاح الدنيا أمامهم، وبسبب زيادة نفوذ رجال القبائل سياسيا وماديا، خصوصا بعد استشهاد رأس الدعوة عبد الله بن ياسين، انتقلت الفكرة الدعوية الى مشروع دولة صارت مطلبا أساسيا وضروريا⁶⁴.

-و حين يتكلم عن مذهب لمرابطين يقول أنّه كان مُنصبًا على دراسة مذهب مالك والبعد عن البحث في علم الأصول والتركيز على فقه الفروع دون سواه، والنهي عن الخوض في العلم الكلام خشية الضلال، والدعوة الى عدم البحث في مسائل العقيدة من صفات وأفعال، خصوصا في عهد الأمير علي بن يوسف (ت537هـ/1143م)، وقد نتج عنه المصادرة على كل الأفكار الأخرى والتضييق على أصحاب المذاهب، ومنع تداول أصناف من الكتب ومنها كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي (ت505هـ/1111م)⁶⁵. والحقيقة أنّ هذا الكلام في كثير من أجزاءه صحيح، وإن كان هناك مبالغة كبيرة مردها حب الرجل كما ذكرنا سابقا وتفضيله للدراسات ذات الطابع العقلاني، وتمجيده لمن يراهم أربابا للعقل من أمثال المعتزلة وعلماء الكلام، ونقمتهم وانتقاصه المتواصل من الطابع السلفي للإسلام.

-ولكنّ ألفرد بل في موضوع الهجرة الهلالية الى بلاد الغرب الإسلامي لم يأت بالجديد ، حيث ظل يدور و يلف حول أطروحة المستشرقين القائلة بأنهم كانوا عنصر خراب و تدمير للبنى السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الإسلامي في القرن 5هـ/11م ، و لكنّ الإضافة البسيطة هنا تتعلق بكونه يرى أن التّمازج الذي حصل بين العنصر العربي في صورته الهلالية و العنصر البربري ، كانت فيه السطوة الحضارية للبربر الذين استطاعوا-بحسب زعمه- إعادة بناء الالتزام الديني للعنصر الهلالي ، الذي لم يكن له وازع من دين أو علم ، فكأن الصورة انقلبت فبعد أن كان للعرب الفاتحين فضل إيصال الإسلام و تعليم أحكامه لأجداد هؤلاء البربر ، جاء الأحفاد في القرن 11م ليردوا الجميل بإعادة تعليم العنصر الهلالي و ضمه الى المنظومة الشرعية الإسلامية⁶⁶.

-وفي تقييم ألفرد بل للحياة المذهبية في العصر المرابطي بشكل عام إجحاف كبير ، حيث وصفها بما يشبه حالة الجذب و القحط و تدني الدراسات الدينية الى أقل المستويات باقتصارها على الفروع و كتب الملخصات الفقهية ، ويستدل في ذلك بما ورد من نقد للفقهاء في كتاب الإحياء للغزالي، من سذاجة وعدم تبهر في أصول الفقه واقتصارهم على الفروع الضيقة و منافستهم لأهل الدنيا و حرصهم على المناصب⁶⁷ ، و الحقيقة أنّه و إن كان بعض هذا التوصيف صحيحا ، إلا أنّه لا يمكن أن يكون دقيقا بالكامل، و يكفي أن نضرب أمثلة على بعض علماء العصر المرابطي لنذكر ذلك ، من أمثال القاضي المحدث أبو بكر بن العربي الأشعري(ت543هـ/1148م) ، و القاضي عياض(ت544هـ/1149م) وغيرهم.

في موضوع ابن تومرت والموحدين يبدو واضحاً الإعجاب الكبير لألفرد بل بالرجل ودعوته، حيث يصفها بحركة الإصلاح العقلاني في الإسلام، ويصف الرجل بالذكاء والنباهة وامتلاك أدوات العلم والدعوة والسياسة، بل ويزعم أنه كان يحاول تطبيق أفكار أبي حامد الغزالي الإصلاحية⁶⁸، وهي صفات قد تكون صحيحة، ولكنه في المقابل يغفل الجانب الآخر من شخصية الرجل وهو الجانب الدعائي الذي استغله لتشويه صورة المرابطين وفكرة التكفير التي استعملها ضد خصومه والتي انجرّ عنها مجازر رهيبية في حق مناوئيه.

فصل بل في العناصر الأساسية التي تكون مذهب ابن تومرت من خلال نصوص من كتبه في مسائل صفات الله تعالى ومسألة الحرية والإرادة والقضاء والقدر والمعجزات والنبوة وغيرها، وقرّر أنّ بعضها يناقض أصول الأشاعرة رغم انتماؤه إليهم مثل مسألة اكتساب العباد لأفعالهم، ومسألة المهدوية، واختلافه مع الغزالي في بعض القضايا الكلامية⁶⁹.

ولكن التقييم العام لتعامل ألفرد بل مع هذه المسائل يجعلنا نصف منهجه بالتناقض، فهو من جهة يعتبر ابن تومرت صاحب أكبر دعوة إصلاحية في العالم الإسلامي، ويُشيد بمنطلقاتها العقلانية، ومن جهة أخرى يستغرب بعض الاختلالات فيها، والحقيقة أن تفسيرنا الوحيد لهذا الموقف هو عدم الموضوعية والموقف المبدئي المسبق من المذهب السلفي.

ومرة أخرى يعود الفرد بل في تفسيره لفشل الحركة الموحدية على المستوى المذهبي، فيقدّم العديد من التفاصيل المرتبطة بالصراع الحاصل في أواخر عصر الدولة،

ومحاولات تقديم التنازلات من بعض الحكام على غرار ادريس المأمون الموحيدي (ت630هـ/1232م) الذي أعلن لعن ابن تومرت على المنابر وعدم الاعتراف بمهدويته، وبعض المسائل الأخرى التي رأى فيها بل تناقضا بل عدم تطابق مع آراء الغزالي⁷⁰. هذه بعض النماذج عن المقاربة التي اعتمدها المستشرق الفرنسي ألفرد بل في كتابه ((الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي))، والتي تمثل في الحقيقة نموذجا مهما من نماذج المقاربة الاستشراقية لتاريخنا الإسلامي، وهي كما رأينا تحوي تصورات و تحليلات مهمة جدا ، خصوصا ما تعلّق منها باستعمال الأدوات الاجتماعية أو الأنثروبولوجية في تفسير الأحداث و المواقف مثلا ، ولكّنها في كثير من جوانبها تُمثل الصورة القاتمة للممارسات السيئة لمدرسة الاستشراق الأوروبي في تشويه التاريخ الإسلامي، ومحاولة تطويع لخدمة الأهداف الاستعمارية.

6. الخاتمة:

من خلال قراءتنا التحليلية والنقدية لكتاب ((الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي)) لألفرد بل توصلنا الى جملة من النتائج بخصوص مقاربتة للحياة المذهبية في الغرب الإسلامي ومنها:

أولا/ أنّ المدرسة الاستشراقية الفرنسية قد اهتمت بشكل كبير بتاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط لأسباب وأهداف عديدة، منها ما كان مرتبطا بالرغبة العلمية في التعرف على تاريخ المنطقة، ومنها ما كان داخلا ضمن الأهداف الاستعمارية التي كان فيها المستشرقون رأس حربة في كثير من الأحيان.

ثانيا/ اهتمت المدرسة الاستشراقية الفرنسية بالتاريخ المذهبي والديني بشكل جدير بالاهتمام، ويبدو أنّ الأسباب كانت في معظم الحالات بغرض دق الأسافين بين

المكونات العرقية للمجتمعات المغاربية ضربا للوحدة الدينية من جهة، وخدمة للأهداف الاستعمارية من جهة أخرى.

ثالثا/ كان للمستشرق ألفرد بل دور كبير في دراسة التاريخ المذهبي والديني للغرب الإسلامي، من خلال كتابه المذكور والذي عرف رواجاً كبيراً في أوساط الدارسين والمهتمين، ولا يزال له نفس المكانة بسبب المنهج الذي اعتمد الرجل في تصنيفه، والذي قام على التلخيص والاختصار والسر المنظم.

رابعا/ رغم الميزات الكثيرة للكتاب، إلا أنّ القراءة المتأنية لمضامينه تكشف عن الكثير من الإشكالات، والتي تتعلق بعضها بالمبالغة في التحليل والتفسير، والبعض الآخر له علاقة بالموضوعية التي غابت في كثير من الأحيان، خصوصا فيما تعلق بالجانب الديني والمذهبي خصوصا.

خامسا/ استطعنا في هذا المقال رصد العديد من الأخطاء العلمية والمنهجية في الكتاب، وقد قدّمنا الكثير من الأمثلة التي أوضحت التناول غير العلمي للكثير من أحداث تاريخ الغرب الإسلامي، وأيضا التفسيرات المبالغ فيها للكثير من مظاهر الحياة الدينية والمذهبية للمنطقة المغاربية.

سادسا/ يمكننا من خلال عشرات الأمثلة التي أوردناها في هذا المقال، أن نحكم على منهج ألفرد بل بعدم الدقة والموضوعية في الكثير من المسائل، بل من حقنا أيضا التشكيك في نوايا الرجل تجاه التاريخ الإسلامي لبلاد الغرب الإسلامي، وانحيازه الواضح لأطروحات المدرسة الاستشراقية الأوروبية في مسائل عدة كالعلاقة بين العرب والبربر، وتفسير انتحال المذاهب والعقائد في مراحل التاريخ المختلفة.

سابعا/ من النتائج المهمة أيضا في هذا المقال، التأكيد على أهمية الدراسات الاستشراقية للتاريخ الإسلامي عموما و المغاربي خصوصا، والاعتراف بالجهود الكبيرة

للمستشرقين في التأليف و التحقيق، ولكن هذا الأمر لا يجب أن يجعلنا نغفل عن الأهداف و المرامي الخفية لكثير من هذه الأعمال.

وأخيرا/ التوصية بالدراسة النقدية للأعمال الاستشراقية بخصوص تاريخ الغرب الإسلامي، من أجل فهم الخلفيات الفكرية والأيدولوجية من جهة، والرد على الأطروحات المتعلقة بتاريخنا سواء في شقها الإيجابي والسلبي، بغرض فهم أكبر للتوجهات العامة للاستشراق، والقدرة على الحكم بشكل أكثر موضوعية وعلمية على هذه المشاريع.

7. قائمة المراجع:

- 1- ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.
- 2- نجيب العقيلي: المستشرقون، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1964م.
- 3- يوهان فوك: تاريخ الاستشراق والدراسات العربية في أوروبا حتى بداية القرن 20م، ترجمة عمر لطفي العالم، ط2، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2001م.
- 4- عبد الحميد برقية: الاستشراق الفرنسي في الجزائر فيما بين 1879 و1962، دراسة تاريخية وفكرية، أطروحة دكتوراه الطور الثالث، جامعة 8 ماي 1945، قالم، 2022/2021م.
- 5- رشيد بن قسمية: المدرسة الاستشراقية الفرنسية وجهودها في جمع المخطوطات العربية وتحقيقها وترجمتها إبان فترة احتلال الجزائر (1830-1962م)، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، جامعة تمنراست، مج 10، ع2، 2021م، ص-ص(199-218).
- 6- سليمان دحماني: المستشرق الفرنسي ألفرد بل مؤرخا وأثنوبولوجيا للدين الإسلامي في شمال افريقيا، مجلة أنثروبولوجية الأديان، جامعة تلمسان، مج 17، ع2، 2011م، ص-ص(478-487).
- 7- عبد الرؤوف قرناوب: المدرسة الاستشراقية في الجزائر فترة الاحتلال الفرنسي، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، ع8، 2018م، ص-ص(461-476).

- 8-مصطفى علوي: المستشرقون الفرنسيون وتحقيق التراث العربي الإسلامي –ألفرد أكتاف بل أنموذجا، مجلة السأورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، جامعة بشار، مج 4، ع1، ص-ص(11-21).
- 9-Emile Janier : Alfred Bel (1873-1945), Bulletin De La Société De Géographie Et D'archéologie D'Oran, Tome65, 1944, P67.
- 10-Géorges Marçais : Bibliographie Par Emile Janier, Revue Africaine, Office Des Publications Universitaires, Alger, Volume89, 1945, P104.
- 11-Henri Massé: Les Etudes Arabes En Algérie (1830-1930) , Revue Africaine , Office Des Publications Universitaires , Alger, Volume77, 1933, P246.

8. الهوامش:

- 1-عبد الحميد برقية: الاستشراق الفرنسي في الجزائر فيما بين 1879 و1962، دراسة تاريخية وفكرية، أطروحة دكتوراه الطور الثالث، جامعة 8ماي 1945، قائمة، 2022/2021م، ص.35
- 2-يوهان فوك: تاريخ الاستشراق والدراسات العربية في أوروبا حتى بداية القرن20م، ترجمة عمر لطفي العالم، ط2، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2001م، ص16.
- 3-برقية: المرجع السابق، 36.
- 4-نجيب العقيلي: المستشرقون، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1964م، ج1، ص152.
- 5-برقية: المرجع السابق، 51.
- 6/نفسه: ص.52
- 7-رشيد بن قسمية: المدرسة الاستشراقية الفرنسية وجهودها في جمع المخطوطات العربية وتحقيقها وترجمتها إبان فترة احتلال الجزائر (1830-1962م)، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، جامعة تمنراست، مج 10، ع2، 2021م، ص.204
- 8-برقية: المرجع السابق، ص.53
- 9-فوك: المرجع السابق، ص-ص 141-144
- 10-عبد الرؤوف قرنا ب: المدرسة الاستشراقية في الجزائر فترة الاحتلال الفرنسي، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، ع8، 2018م، ص.467.
- 11-مصطفى علوي: المستشرقون الفرنسيون وتحقيق التراث العربي الإسلامي –ألفرد أكتاف بل أنموذجا، مجلة السأورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، جامعة بشار، مج 4، ع1، ص.167

عنوان المقال: الاستشراق الفرنسي والتاريخ المذهبي للغرب الإسلامي:
قراءة في كتاب ((الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي)) لألفرد بل (1873-1945م)

- 12-برقية: المرجع السابق، 57.
- 13-العقيقي: المرجع السابق، ج 1، ص 153 و ج 3، ص. 387.
- 14-برقية: المرجع السابق، ص. 57.
- 15-نفسه: ص. 73.
- 16-قرناب: المرجع السابق، ص. 468.
- 17-العقيقي: المرجع السابق، ج 1، ص. 192.
- 18-برقية: المرجع السابق، ص 81 و 82.
- 19 -Henri Massé: Les Etudes Arabes En Algérie (1830-1930) , Revue Africaine , Office Des Publications Universitaires , Alger, Volume77, 1933, P246.
- 20-برقية: المرجع السابق، 85 و 90.
- 21-قرناب: المرجع السابق، ص 468 و 469.
- 22-برقية: المرجع السابق، ص 97 و 98.
- 23-نفسه: ص. 100.
- 24-سليمان دحماني: المستشرق الفرنسي ألفرد بل مؤرخا وأثنوبولوجيا للدين الإسلامي في شمال إفريقيا، مجلة أنثروبولوجية الأديان، جامعة تلمسان، مج 17، ع 2، 2011م، ص 479.
- 25-نفسه.
- 26-Emile Janier : Alfred Bel (1873-1945), Bulletin De La Société De Géographie Et D'archéologie D'Oran, Tome65, 1944, P67.
- 27-Géorges Marçais : Bibliographie Par Emile Janier, Revue Africaine, Office Des Publications Universitaires, Alger, Volume89, 1945, P104.
- 28-Janier : Opcit, P68.
- 29-علوي: المرجع السابق، ص. 169.
- 30-Janier : Opcit, P68.
- 31-دحماني: المرجع السابق، ص 480.
- 32-Janier : Opcit, P71.
- 33-دحماني: المرجع السابق، ص. 480.
- 34-Marçais : Opcit, P109.
- 35-العقيقي: المرجع السابق، ج 1، ص 256 و 257.

36-ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م، ص 127.

37-نفسه: ص130.

38-نفسه: ص91.

39-نفسه: ص120.

40-نفسه: ص-ص 118-122.

41-نفسه: ص231.

42-نفسه: ص78و79.

43-نفسه: ص79.

44-نفسه: ص80.

45-نفسه: ص124.

46-نفسه: ص171و172.

47-نفسه: ص-ص 173-178.

48-نفسه: ص184و185.

49-نفسه: ص187.

50-نفسه: ص58.

51-نفسه: ص61.

52-نفسه: ص68.

53-نفسه: ص96.

54-نفسه: ص102.

55-نفسه: ص106.

56-نفسه.

57-نفسه: ص124و125.

58-نفسه: ص132و133.

59-نفسه: ص147.

60-نفسه.

61-نفسه: ص164.

62-نفسه: ص160و161.

عنوان المقال: الاستشراق الفرنسي والتاريخ المذهبي للغرب الإسلامي:
قراءة في كتاب ((الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي)) لألفرد بل (1873-1945م)

- 63-نفسه: ص 226 و 227.
- 64-نفسه: ص-ص 234-236.
- 65-نفسه: ص 240 و 241.
- 66-نفسه: ص 215 و 216.
- 67-نفسه: ص 240 و 241.
- 68-نفسه: ص-ص 249-251.
- 69-نفسه: ص-ص 268-272.
- 70-نفسه: ص-ص 280-285.